

(بين القلب والسماء)

نادية خالد

رسائل من القلب إلي من يبحث ..

بين القلب والسماء

مقدمة

هذا الكتاب لم يُكتب لأعلّم، ولا لأعظ.

كُتب لأن قلبي كان مزدحمًا بأسئلة، وألم، وحنين لشيء أبعد من الدنيا... شيء في السماء، لكنّي كنت أبحث عنه وأنا على الأرض.

"بين القلب والسماء" رحلة صغيرة في عُمق كبير.

محاولة صادقة للحديث مع الله، وللسير إليه، ولو بخطوات متعثّرة.

كتبتُ ما تمنيت أن يقوله لي أحد، حين كنتُ أبحث عن معنى، عن طمأنينة، عن نور.

ربما تجد في هذه الصفحات شيئًا يشبهك، أو صوتًا يشبه سُكوتك.

وإن لم تجد، فلا بأس... يكفيني أنني كتبتُ بصدق، ومن صدق، يولد دائمًا ما يلمس.

إلى كل روح تائهة في هذا العالم — لست وحدك.

ولا أحد يضيع أبدًا إن كان يسير بقلبٍ يفتّش عن الله.

السباق السرمدي

كل يوم كنت أسأل نفسي: من أنا؟ وما هو موقعي في هذه الحياة

ربما كنت شخصًا يغوص في التفكير، أو يسعى لتحقيق هدف معين، أو يتأمل في معاني الوجود...

استيقظت لأجد نفسي أمام مسؤولية المذاكرة، أُجتهد لأحقق التفوق وأرتقي في دراستي، لأصل إلى ما يبعث في قلبي شعور الفخر والرضا.

كانت النصائح تتردد حولي، تقول: "اصبري، اجتهدي في الثانوية لتنالي الراحة في الجامعة."

وعندما التحقت بالجامعة، تكرر هذا القول: "اضغطي على نفسك قليلًا، وستجدين الراحة بعد التخرج."

لكن الحقيقة المؤلمة ظهرت بوضوح، بعد التخرج لم أجد راحة تذكر

الحياة ما هي إلا دائرة مفرغة من تعب إلى تعب أشد، ومن عناء إلى مشقة أكبر. ليس فقط في الدراسة، بل في كافة مناحي الحياة ... فالحياة لا تخلو من الابتلاءات..

وهنا أدركت الحقيقة الوحيدة:

"اجتهد في الدنيا لتنال الراحة الحقيقية في الآخرة".

ولأن الراحة ليست موجودة في الدنيا، يُقنع الإنسان نفسَه أن سعادتَه تكمن في الكمال. يظلُّ يبحثُ عمّا ينقصُه، معتقدًا أن سعادتَه لن تكتمل إلا بحصوله على الشيء الذي يحلمُ به. لكنه غيرُ مُدركٍ أنه في الحقيقة يجري وراءَ نهايته... يبحثُ بلا وعيٍ، وأحيانًا في الاتجاه الخطأ، دون أن يُدرك أنه مُعفى أصلاً من هذا الشقاءِ في البحث.

فعندما يمر المرء بفترة عسيرة في حياته ينتظر بفارغ الصبر أن تنتهي تلك الفترة ، أو يظن أن راحته ستأتي بعد أن تمر فترة من حياته .. وما يدريك أنك سترتاح بعدها؟ وما يدريك أنك ستعيش بعد هذه المدة ؟ قد تبلغ الراحة فعلا لكن سرعان ما تفقد شيئا اخر فسرعان ما تُسلب هذه الراحة وتظل تنتظر هذه الفترة تنتهي حتي تحصل علي راحة ليست موجودة ..

"كأنك تجري في سباق طويل ، تري نقطة النهاية بعيدة، وحينما تصل لها ... تجدها مجرد محطة ثانية لسباق جديد، وهكذا حتي تدرك إنك قطعت طريقاً طويلًا جدًا... دون أن تجد ما كنت تبحث عنه "

فلهذا يجب علي الإنسان أن يعش كل فترة بما فيها ، لا يستعجل بأن تمر الأيام أو الفترات الصعبة ، أن يعيش دون

أن يطارد تلك الراحة السرابية، فهي ليست موجودة اصلا ، الراحة تنبع من أعماق الإنسان حتي في أشد اوقات الإنسان، فقد ينزل الله في قلبه اليقين والسكينة فتصبح تلك الفترة فترة تعلم وصبر وتقرب من الله ، وقد يكون الانسان في أكثر الفترات استقرار ومع ذلك تراه حائرا حزينا بائسا ،

فقد اختلط بعقله أن الراحة هي السعادة والاستقرار وخلو الحياة من البلاء ، بينما الراحة تنبع من روحه..

وبينما يظل الإنسان في سعيه المستمر وراء ما يعتقد أنه الكمال ، يواجهه هم آخر وهو رزقه الذي كتبه الله له.

"وهنا يأتي مفهوم "همّ الرزق"

فالإنسان يحمل همّه دائمًا في قلبه، يخشى أن يفوته رزقه أو يتأخر عنه،

ومع ذلك، فإن الحقيقة واضحة:

لو اجتمع الإنس والجن لمنع شيء كتبه الله له،

فلن يستطيعوا أن يمسّوه أو يمنعوه. فما كتبه الله لك، لا يحول بينك وبينه أحد

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب".حديث صحيح ، رواه ابن ماجه، وصححه الألباني

إذاً ...ما المطلوب من الإنسان؟

الدعاء وصدق الإيمان...

يسعى في طريقه، لا ليحمل هم رزقه، بل ليكون أفضل نسخة من نفسه، في رحلة بحث عن روحه، عن نقائها، عن الصبر واليقين. أن يكتشف نفسه ومواطن قوته، أن يسعى دون أن ينشغل بالنتيجة، أن يبني وصالًا قويًا بينه وبين ربه يجعله يشعر بالطمأنينة وسط الخوف والفزع. أن يكون مؤمنًا حقيقيًا، تمر به الدنيا مرورًا خفيفًا، لا أن تدهسه تحت أقدامها.

وحين ندرك أن الرزق مقدر، يصبح الصبر هو الطريق الأمثل...

قيمتك الحقيقية

ولا يصل الإنسان الي درجة الإيمان الا ان يعرف اولا ما قيمته، ما معني روحه .

يقول البعض بأن الإنسان لا قيمة له إنما هو مجرد جسد بالي

غير أنّ هذه النظرة القاصرة تُغفل الحقيقة الكبرى: أنّ الإنسان مخلوق نفيس، خُلق بيد الرحمن، ونُفخ فيه من الروح، وجُبِل على القَدر، لا على الفناء.

إنك – أيها الإنسان – صورة من جمال الخَلق، وسرٌّ من أسرار التكريم.

● قد سُوِّيتَ في أبهى هيئة، وعُلِّمت ما لم تُعلَّم المخلوقات، وسُخِّر لك ما في الكون من نِعَم وآيات، وحُملت أمانة لم تحتملها السموات.

- ولما ارتفع كبر إبليس، وادّعى الفضل عليك، طُرد من رحمة الله، لا لشيء إلا لأنه استكبر أن يسجد لك طاعةً لله، فكان سقوطه من مقام الملأ الأعلى عبرةً لكل متكبّر.

- وجُعل الله موطنك الأول في الجنة، لا في دار الفناء.

هناك، كانت أولى خطواتك، وفيها نُسجت كرامتك الأولى.

- ثم لما زللت، لم يُقصِك ربك، بل اجتباك، وقبل توبتك، وهدى قلبك، فعادك الله إلى رحمته، وأقامك على طريقه.

- واختارك خليفةً في الأرض، لا لتُستعبد، بل لتُعمّر، وتُقيم فيها ميزان الحق

- وسخّر لك كل ما في السماوات والأرض؛ البحر والبر، الليل والنهار، والرزق من الطيبات، وفضّلك على خلقٍ كثير.

- ثم أنزل إليك كتابه، نورًا وهداية، يشفي القلب، ويقود إلى سبل السلام، لا يضل من سار فيه.

- وبعث لك رسوله الأكرم، من جنس بنيك، ليكون هاديًا وشاهدًا ونذيرًا، وجعل رسالته رحمةً لك لا عذابًا.

- ثم جعلك من خير أمة أُخرجت للناس، أمة الشهادة، والدعوة، والوسطية.

- وأكرمك بأعذب صلة: صلة الحب، لا الخوف فقط، ولا العبادة وحدها. علاقةٌ يتبادَل فيها الحب بين الرب وعبده.

- وجعل دار جزائك الجنة، دارًا ما رآها بشر، ولا سمع بها سمع، ولا خطر جمالها على قلب مخلوق.

- وجعل وجودك فيها خلودًا لا فناء، ورفعك إلى مقام الخلود في نعيمه المقيم.

- بل زادك فوق كل ذلك نعمةً لا توصف: رؤية وجهه الكريم، حيث تنظر الأرواح إلى مجد ربها، وتكتمل فرحتها بلقائه.

هذا هو الإنسان... هذه هي قيمته الحقيقية، لم يُخلق عبثًا، وحاشا لله أن يخلق شيئًا بلا هدف أو معنى.

وإذا كانت هذه قيمةُ الإنسانِ عامةً، فكيف بالمؤمنِ الذي عرفَ ربَّه؟

فما بالك بقيمة المؤمن الحقيقي؟ ما بالك بمكانته عند ربه؟

"المؤمن القوي... حين يذكر اسمه في السماء؛ تهمس به الملائكة وتستغفر له, كأنه نور يتوهج بينهم، يعرفونه كما يعرف الإنسان أحب الناس إليه ، قد يسبق الملائكة أنفسَهم بقلبٍ عرفَ ربَّه حقَّ المعرفةِ قبلَ أن يراهُ، وبنفسٍ انتصرَتْ على ضعفِها. لا يتأفف ولا يتذمر من القدر، بل يرى في كل محنة حكمة، وفي كل ابتلاء رحمة.

فقد قال رسول الله ﷺ:

"عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ! إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ: إن أصابَتْه سرَّاءُ شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له." (رواه مسلم)

المؤمن يدرك نفحات لطف ربه حين تصيبه وتغمره، لا ينظر لما في أيدي الناس، ولا تمتد عينه لما وهبهم الله، بل يفهم معنى العافية الحقيقية... أن يكون قلبه سليمًا.

فأيُّ هبة أعظم من سلامة القلب والصدر؟

نرى كثيرين معافين في أجسادهم، لكن أرواحهم معاقة، وقلوبهم مريضة بأمراض خبيثة كالبغض والحسد والحقد والنفاق، فلا يعرفون للراحة سبيلًا، ولا يهنأ لهم بال، ولو امتلكوا خزائن السماوات والأرض.

وفي المقابل، قد تجد رجلًا لم يُعطَ من الغنى شيئًا، لكنه رُزق غنى النفس وراحة الروح، فتراه كأنه ملك حر، ينظر إلى الدنيا بطرف عينه، راضيًا بما لديه، وقلبه نقي، لا يشوبه مرض أو حقد... فهذا هو الغنى الحقيقي.

وقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الرجل الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ثلاث مرات في ثلاثة أيام ، فتابعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ ليقتدي به..

فبقي معه ثلاثة أيام فلم يرَ عملاً زائداً على عمله، ولم يقم من الليل شيئاً, إلا أنه إذا استيقظ من الليل وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبره حتى يقوم لصلاة الفجر، ولم يسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث ليال كاد أن يحتقر عبد الله عمل الرجل،

فسأله وقال: ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقال: ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله بن عمرو: هذه التي بلغت

بك، وهي التي لا نطيق. أخرجه النسائي .

ففي هذه القصةِ يتجلّى المعنى الحقيقيُّ للغنى، فالغنيُّ ليسَ مَن امتلكَ الدنيا، بل مَن امتلكَ قلبًا نقيًّا يرى النعيمَ في الرضا، لا في زوالِ الألمِ.

♡تذكرة♡

تذكّر دائمًا...

من عاش للدنيا، داسته تحت أقدامها.

ومن عاش لله، عاش مَلِكًا، وإن كان فقيرًا.

كُن مؤمنًا حقيقيًا، وامضِ في الدنيا خفيفًا، لا تتعلّق بها،

وتعلّق بربك أكثر من أي شيء سواه...

حينها، ستجد الطمأنينة وسط الفزع،

وستشعر بغنى النفس، حتى وإن لم تملك من الدنيا شيئًا.

قوة الدعاء وعجائب الاستجابة

قبل أن تطلب من الله شيئًا، اطلبه في عفو وعافية، فقد يمنحك ما تتمنى، لكن دون أن تشعر بفرحته، أو بعد أن تفقد حاجتك له. اطلب بلا تردد، فأنت تسأل مالك خزائن السماوات والأرض، ولا تستبعد أي أمر مهما بدا مستحيلًا.

تأملت في قصة سيدنا زكريا عليه السلام حين دعا ربه أن يرزقه غلامًا، رغم أنه كان شيخًا كبيرًا. وقفت عند هذا الموقف طويلًا، متعجباً... كيف خطر بباله أن يدعو بهذا الطلب، وهو في عُمر قد يراه الناس مستحيلًا للإنجاب..تساءلتُ: ألم ييأس؟ ألم يدعُ دعاءً عريضاً حين كان شاباً؟ لكن هنا، كان الدرس العميق... أن نستمر في الدعاء وألا نيأس أبدًا، فالله لا يمل حتى نمل نحن.

وما زادني دهشة أكثر، أنه حين بُشِّر بالغلام، قال متعجبًا:

"رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ"

يعني أنه كان يعلم من البداية أن الأمر صعب جدًا، لكنه دعا رغم ذلك، وكأن الدعاء كان عادته، لا يشغل باله بطريقة الاستجابة، بل كان يسأل ربه كل ما يخطر بباله دون خوف أو يأس.

وهنا سألت نفسي: لماذا نتكاسل في الدعاء؟ لماذا نقصر في طلب حاجاتنا، وهو الذي يملك كل شيء؟ يرزق من جحده. أفلا يرزق من رجاه؟ أفلا يعطي من طرق بابه وأيقن أنه الكريم؟ لو سأله أهل السماوات والأرض جميعًا، ما نقص ذلك من ملكه شيء...

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ – رضي الله عنه – عَنْ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْت كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.رواه مسلم

حتي الأشياء التي قد تبدو تافهه أو بسيطة. ينبغي أن ندعو بها الله فإنه أن لم ييسرها لن تتيسر. فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيءٍ حَتَّى الشِّسعَ ، فَإِنَّ اللَّهَ إِن لَمْ يُيَسِّرهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ)

على الرغم من هذا اليقين المطلق بعظمة الله وقدرته على استجابة كل دعاء، إلا أن هناك جانبًا آخر في رحلتنا مع الدعاء يستحق التأمل: هو حكمة الله في تأخر الإجابة أو اختلاف صورتها عما نتوقع.

كم من مرة رفعَ المرءُ كفّيهِ في جوف الليل، أو في ساعات الضيق، يدعو ربّه بأمرٍ تمسّكت به روحه، مُلحًّا لا ييأس، مُؤمنًا بالإجابة. ثمَّ يمرّ الوقت، وتتأخر الاستجابة، أو لا تأتي بالصورة التي تمناها، فتبدأ الظنون تتسلل إلى القلب، وقد يصل الأمرُ إلى شيءٍ من العتاب الخفيّ للقدر، "دعوتُ كثيرًا... فلم يُجِبْني!" في تلك اللحظات، قد يبدو تأخر الإجابة قسوةً، وكأن الدعاء قد نُسيَ في ملكوت السماء. لكنَّ الحقيقةَ العظمى تكمن في أن لله يرى، ويعلم، ويدبر

الأمرَ بحكمته اللطيفة. هو سبحانه لا يقسو على عبده، بل يختار له الخيرةَ فيما يعلمه ولا نعلمه، فنحن البشرُ عجولون بطبعنا، محدودو الإدراك. وصدقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، أو يستعجل. قالوا: يا رسول الله وكيف يستعجل؟ قال: يقول: دعوت ربي فما استجاب لي."(رواه أحمد والترمذي).

هذا الحديثُ الشريفُ يفتحُ لنا آفاقًا جديدةً لفهم استجابة الدعاء. فكلُّ تأخرٍ أو صورةٍ غير متوقعةٍ للإجابة، هو في جوهره درسٌ ربّانيٌّ عميقٌ يعلمنا ألا نُعلقَ قلوبنا بمظاهر الدنيا الفانية. إنّ تعليقَ مصيرنا، أو سعادتنا، أو حتى وجودنا على ما نطلبه من زائلِ الدنيا، هو الذي يُكبّر فينا حجمَ الفقد، ويُحبطُ عزائمنا عن معاودة الدعاء بثقة.

إن الإيمانَ بأن لكل دعاءٍ استجابةً بصورةٍ من الصور؛ تعجيلٍ، أو ادخارٍ ليومٍ هو أحوجُ ما نكونُ فيه، أو محوٍ لخطايا أثقلت ظهورنا – يجعلنا نستقبلُ كلَّ قدرٍ بقلبٍ مطمئنٍّ، وروحٍ واثقةٍ في كُنهِ الخيرِ الكامنِ فيه.

رسالة من السماء

أحيانًا، يظنّ الإنسان أنه يسير في الطريق المستقيم، مطمئنًا إلى أنه غير مقصّر، فإذا به يُفاجَأ يوم القيامة بأنه محاسب على تفاصيل لم يلقِ لها بالًا.

أمور صغيرة تمرّ بنا في الحياة، نغفلها، لكنها عند الله عظيمة.

كنت أظن بنفسي خيراً، أقرأ القرآن من حين لآخر، وأسعى إلى الله بما أستطيع، ولكن مرت فترة عليّ حتي النَفس أصبح ثقيلاً وكنت أبكي كثيراً

وفي ليلةٍ من الليالي، رأيت حلمًا غيّر في داخلي الكثير...

رأيت نفسي في غرفةٍ واسعة في السماء، هادئة النور، يحرس أبوابها ملائكة، والناس يدخلون واحدًا تلو الآخر.

نظرت حولي فرأيت جدي، رحمه الله، فاطمأن قلبي قليلاً، لكن فجأة، سَمعتُ صوتًا مهيبًا يناديني باسمي...

التفتّ، فرأيت شخصًا لا تظهر ملامحه، لكن صوته كان عميقًا، يخترق القلب:

"إنّ الله عاتب عليكِ."

تزلزل كياني، وارتجفت قدماي، وسارعت أقول بصوت متقطع:

"أنا؟! ولماذا؟! إني أحب الله كثيرًا! لماذا يعاتبني؟!"

اقترب مني، ونظر إليّ نظرةً امتزج فيها العتاب بالمحبة، ثم قال جملة كسرتني:

أتُبكين على أمور الدنيا... ولا تبكين على القرآن الذي "هجرتِه؟!"

ساد الصمت، وشعرت كأن الأرض تميد بي، وحرقة عميقة اشتعلت في صدري،

وبدون وعي، فاضت دموعي، حاولت أن أتكلم... لكن لساني انعقد.

استيقظت من النوم والدموع على خديّ، وقلبي مثقل بطريقة لم أعهدها من قبل.

كنت أظن أنني غير مقصّرة، طالما أنني أقرأ القرآن من حين لآخر... لكن الحقيقة؟ كنت بعيدة.

حينها أدركت كم من الأمور نغفل عنها، وكم من الأبواب المغلقة في أرواحنا تنتظر صحوة كهذه. كم نضخم من أمور الحياة رغم أنها لا تساوي شيئاً!

كم من شيء نراه بسيطًا، لكنه عند الله عظيم؟

وكم نرى أنفسنا في موضع خير، ونحن أبعد مما نتصوّر؟

منذ تلك الليلة، دعوت دعاءً لا يفارق لساني:

اللهم، إن كنتُ مقصّرة أو سائرة في درب لا يُرضيك، فنبهني بلطفك في الدنيا، قبل أن ألقاك"

أحيانًا قد تظن أن الطمأنينة الحقيقية تكمن في الرضا التام عن النفس، وفي الشعور بأنك قد أديتَ ما عليك كاملاً.
لكن الحقيقة، أن بوصلة قربك من الله ليست في هذا الشعور المزيف بالاكتمال، بل في مقدار التقصير الذي تشعر به.
نعم، كلما كنتَ أقربَ إلى الله، وأدركتَ عظمته وجلاله، كلما شعرتَ بأن عملك الصالح لا يكفي، وبأن هناك دائمًا مساحة للاجتهاد والمزيد.

هذا الشعور المستمر بالتقصير، ليس دعوة للقسوة على الذات أو جلدها، بل هو حافز خفيّ يدفعك دائمًا نحو الأفضل،

ويحثّك على بذل أقصى ما بوسعك. إنه إشارة من قلبك بأن هناك قمة أعلى، ونورًا أبهى، وأن الرحلة لم تنتهِ بعد.

وعلى النقيض تمامًا، قد تجد المقصرين، أولئك الذين يقنعون أنفسهم باليسير، ويرون أعمالهم البسيطة كافية، بل يتفاخرون بصلاحهم وصلاح قلوبهم. هذا الرضا الزائف هو غالبًا علامة على الغفلة، وعلى مسافة أكبر من حقيقة السعي والاجتهاد.

لنتأمل هذا الأمر في حياتنا اليومية، ولنأخذ طالب العلم كمثال. تستطيع أن تفرق بوضوح بين الطالب المجتهد والطالب المتخاذل:

الطالب المجتهد تراه دائمًا يشعر بالتقصير، وكأنه لم يبلغ بعدُ ما يصبو إليه من العلم. هو دائم البحث عن المزيد، يراجع دروسه مرارًا وتكرارًا، ويحل ما يستطيع من أسئلة، ولا يشعر

بالاكتفاء أبدًا حتى اللحظة الأخيرة قبل الامتحان. هذا الشغف للكمال هو وقوده للتقدم.

أما الطالب المتخاذل، فيكتفي بمذاكرة قليلة ويقول "قد اكتفيت". وإذا سألته عن حال دراسته، أجاب بثقة "أنا أعرف كل شيء"، ولا يرغب حتى في مراجعة ما درسه. هذا الرضا المبكر عن القليل هو الذي يوقفه عن النمو والتطور.

وقد علمنا سلفنا الصالح قيمة هذه المحاسبة الذاتية، فذكر الإمام أحمد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية."

قال ابن أبي الدنيا: حدثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال: "كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب يوما، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتي، ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟ ثم خرج مغشيا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: "يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى"".

وقال الحسن البصري رحمه الله: "المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك. وإنك لمن حاجتى، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات،

حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالى ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله"

وهكذا هو الأمر في كل مناحي الحياة، وفي مسيرتنا إلى الله. أن تشعر دومًا بالتقصير هو مؤشرٌ لليقظة، ودليل على أن قلبك لا يزال يطمح للعُلى، ويرغب في القرب ممن هو أهلٌ للقرب. اجعل هذا الشعور وقودك للسعي، لا قيدًا يُثقلك.

القرآن..موطن الروح

كم مرة نغفل عن حقيقةٍ جوهرية: أن قراءة القرآن ليست مجرد فريضةٍ نؤديها، أو نافلةٍ نختارها، بل هي ضرورةٌ وجودية، احتياجٌ فطريٌّ يتجذر في عمق كل روحٍ أنهكتها صراعات الحياة. هو الملاذ الذي تئوب إليه الروح، والمنبع الذي يروي ظمأها، ومحطة الشحن التي تعيد إليها قوتها.

قد تبدأ رحلتك مع القرآن بشعورٍ بالثقل، بلمسةٍ من الكسل، أو ببعض التشتت الذي يحجب عنك استشعار الآيات. هذه المشاعر طبيعيةٌ تمامًا، فهي ليست إلا همساتٍ شيطانيةٍ ماكرة، تسعى بضراوةٍ لتصرفك عن مسار فطرتك، عن موطنك الأصيل الذي يشحن روحك.

لكن مفتاح الانتصار يكمن في إصرارك على المقاومة. متى ما تجاوزت هذه الوساوس، ومتى ما واظبت على التلاوة، حتى

وإن كانت بلا استشعارٍ في البداية، ستشهد مع الأيام تحولًا عميقًا يتجلى في داخلك. ستلمس تغييرًا يطال روحك، وكأنها تولد من جديد.

تخيل أن روحك تتوحد مع صديقٍ قديمٍ ومخلصٍ. يصبح جزءٌ منه فيك، وتتآلف روحكما حتى يراكم الناظر كأخوين. هكذا تمامًا هو القرآن؛ حينما يزداد قربك منه، وتدوم تلاوتك له، ستجد أن ما في القرآن قد انطبع في كيانك.

ستكتسب أخلاقه السامية، وتشمئز روحك مما يمقته، وتنجذب لما يحبه. سيصبح بوسعك أن تميز الصواب من الخطأ بقلبك وبصيرتك الروحية معًا. ستجد في آياته متنفسًا لضيقك ورفيقًا لوحدتك، وكأنه يقرأ خفايا روحك، فالله تعالى هو الذي يناجيك، و"ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"؟

عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مر». متفق عليه.

فالحقيقة الثابتة هي: نحنُ محتاجون إلى القرآن، وليس هو محتاجًا إلينا. هو نور دربنا، وسكينة أرواحنا.

أثر الكلمة

ربما تكون الكلمة هي أسهل ما يُقال، لكنها في الحقيقة مرآة القلب، ومؤشر الإيمان، ودليل على رُقي النفس أو وضاعة السلوك. المؤمن الحقيقي يظهر في كلماته قبل أفعاله، فلا يغتاب، ولا يشتم، ولا ينطق زورًا، ولا يعرف للفظ البذيء طريقًا. فالقلب الطاهر لا يُخرج إلا لسانًا طيبًا.

فكم من كلمة قالها إنسان دون أن يُلقي لها بالًا، فسقطت به إلى دركات جهنم!

وكم من كلمة خرجت من فمٍ راضٍ بالله، رفعت صاحبها درجات في الجنة وهو لا يشعر!

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم." — رواه البخاري.

والنبي ﷺ جعل حفظ اللسان ملاك الأمر كله، فقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: أخذ بلسان نفسه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، لا تطلقه، لا تتكلم. «قال: يا رسول الله، وإنَّا لَمُؤَاخَذُون بما نتكلم به؟ فقال له: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» حديث صحيح

فلكل كلمة طاقة تحيط بها، كأنها هالة خفية، قد تكون نورًا طيبًا يبعث في النفس راحة، أو ظُلمة خبيثة تثقل القلب.

حين تجلس مع شخص لا يرى في الحياة إلا السواد، يشيع من حوله شعورًا بالضيق واليأس، يشتكي دومًا، يتذمر من كل شيء، يُنكر النِعَم ويتفنن في اجتثاث الأمل من الجذور... تجد نفسك شيئًا فشيئًا تتأثر. تُغادره وقد سكنك وجعه، وإن لم يكن وجعك. تمرّ بك الساعات مثقلًا لا تدري لِم، ولا تدرك أن بعض القلوب تنفث سمّها في الحديث لا في الفعل.

هؤلاء — وإن بدوا عاديين — هم من أخطر الناس على صفاء النفس. كل محاولة لبث الأمل إليهم تُقابل بالسخرية، وكل بادرة نور يطفئونها بأضعاف من الظلام. الحديث معهم معركة خاسرة، تنفد فيها طاقتك، ويبقى همّهم على حاله. الحكمة تقتضي أن تبتعد، لا قسوة في ذلك، بل رحمة بنفسك.

وعلى النقيض تمامًا، هناك من تبتهج بحديثه القلوب. كلامه يحمل طاقة طيبة، تحيط بك كنسيم بارد في حرّ الصيف،

لا يُنكر الألم، لكنه يرى فيه حكمة، ويزرع الأمل ولو في أرض قاحلة. مجرد لقائك به يكفي لتشعر أن يومك قد تغيّر، وكأن شيئًا خفيًا قد مسّ روحك بلطف وحنان.

الكلمة قد تخرج منك على سبيل المزاح أو التهكم، ولكنها قد تسكن قلبًا محطمًا، تزيده ألمًا وتدفعه إلى الهاوية، بينما أنت تظنها "نكتة". ربما كان من تحدثت إليه يمر بصراع نفسي، أو يختنق تحت ضغط الحياة، فتكون كلمتك تلك القشة التي قصمت ظهره.

وقد يظل الإنسان أسيرًا لكلمة قاسية سمعها، يعجز عن نسيانها أو تجاوزها، بينما قائلها يمضي في حياته غير آبه. لكنها لن تمضي عند الله، وسيُسأل عنها.

وقد شاهدنا في الآونة الأخيرة فقدان عدد كبير من المشاهير لأرواحهم، بسبب تأثير الكلمات السلبية التي غرست في قلوبهم كالسيوف، مما أثقل على صدورهم وأدى إلى موتهم، بل وبعضهم لم يستطع التحمل فانتهى به الأمر إلى الانتحار.

ورغم ذلك يستهين الجاني بما ارتكبه، معتقدًا أن ردود أفعال الضحايا مبالغ فيها. مثل ذلك الشخص الذي سرق حذاءً، واعتبر الأمر مجرد فعلة بسيطة، لكنه لم يعلم أن الحذاء كان لشخص مصاب بمرض السكري، واضطر لاحقًا لبتر قدمه بعدما دخل شيء حاد فيها دون أن يشعر! ومع ذلك، يظل الجاني يظن أنه لم يفعل شيئًا مؤذيًا.

لذلك، فالمؤمن لا يتكلم إلا بالخير. وإن لم يجد خيرًا يقوله، فالصمت أولى له.

يُحاول دائمًا أن يكون طاقة نور لمن حوله، يشجع، يُطمئن، يُذكّر بالجنة، يُهون، ويترك في القلب أثرًا طيبًا.

قال الله تعالي :"ألم ترَ كيف ضرب الله مثلا كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء".

"تؤتي أكُلَها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلهم يتذكّرون". سورة إبراهيم

"ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار".

فالكلمة الطيبة قد تغيّر حالًا، وتفتح بابًا من الرحمة ، وتقرّب القلب إلى الله دون مشقة تُذكر.. كل هذا لا يحتاج مالًا ولا جهدًا، لكنه يتطلب قلبًا نقيًا

الصلابة النفسية

يولد الإنسان، وفي داخله بذرة هشّة، كأنها نواة حصن صغير. لا يُرى، لكنه موجود، ينتظر أن تمتدّ إليه يد الرعاية، أن يُروى بالحب، ويُقوّى بالاحتواء. فإن كُتب له أن ينشأ بين أيدٍ تمنحه الثقة وتغرس فيه اليقين، كبر هذا الحصن معه، حتى يصير جدارًا عالياً لا تُخترق زواياه، ولا تهدّه العواصف.

فيكبر الطفل، وقد تعلّم حب ذاته، واحترام روحه، فلا تُخيفه كلمة عابرة، ولا تُربكه نظرة شك. يمضي بثبات، لا يلتفت إلى من يخذله، لأنه يرى هدفه بوضوح، ويسير نحوه بإيمان لا يتزعزع.

لكن من لم يُمنح هذا الأمان في طفولته، يكبر وقلبه مكشوف، تسكنه الهشاشة، وتخترقه الكلمات كما السهام. ومع ذلك، إن نهض، إن وعى ما فاته، واستدار إلى ذاته

يبنيها من جديد، فإنه يصنع حصنه بيديه. ولأن ما بُني على الوعي أثبت مما وُهب صدفة، يصير أقوى من غيره، وأصلب في وجه الريح.

ذاك الذي أعاد تشييد ذاته، لا يعود كما كان، بل أفضل. يعرف مكانه في هذا العالم، لا ينتظر من يمنحه اعترافاً بوجوده، لأنه أدرك: يكفي أن يكون، ليكون جديراً.

يا لغرابة الإنسان! يُغدق حبه وتسامحه على كل ما حوله، حتى من أساء إليه، إلا على نفسه ، يصبح قاسيًا لاذع النقد تجاهها، لا يلتمس لها الأعذار، وكأنه يراها العدو الأكبر. كثيرون يمنحون الثقة والحب غير المشروط لأشخاص قد لا يكونون أهلاً لذلك، يرونهم الأجمل والأفضل، بينما تعجز أنفسهم عن منح هذا العطاء لذواتهم، رغم أنها الأولى والأحق بكل ذرة حُب وتقدير. النفسُ وديعة غالية وهبها الله لك،

فلا يليق بك إلا أن تكون رحيمًا بها، تُهذبها وتُعلمها وترفع من شأنها. إنها الرفيق الدائم لك في الحياة وبعد الممات، فكن حنونًا معها إذا أخطأت، وتصالح مع عيوبها قبل محاسنها.

لم يُخلق الإنسان كاملاً، ولا يُطلب منه أن يكون كذلك، لكنه يُكمل نقصه برضا النفس وسعة القلب. لا أحد منا يخلو من جراح نفسية، قد تكون بسبب شكله، لونه، طوله، أو وزنه، وغيرها من الصفات التي يجعلها المجتمع مقياساً للقيمة. وقد يُظن البعض أن هذه الاختلافات تنقص من قيمتهم، ويُثقلون بألم النقد القاسي، فيغرقون في موجة من الحزن والشك.

لكن الحقيقة الثابتة التي لا مراء فيها، هي أن قيمة الإنسان لا تنبع من مظهره الخارجي، بل من روحه الطاهرة وصفاء قلبه. ولنتذكرالنبي صلى الله عليه وسلم، حينما انكشفت ساق عبد

الله بن مسعود، وكانت هزيلة وضعيفة، فضحك بعض الحاضرين، فقال لهم:

"أتضحكون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أحد." رواه الإمام أحمد في "المسند

وكما قال صلى الله عليه وسلم:

"إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم." رواه مسلم

فالإنسان، في جوهره، ليس سوى روحٍ طاهرة تسكن جسداً عابراً، وكثيراً ما يغفل الناس هذا السر العظيم. فلنرفع أبصارنا فوق المظاهر، ونُدرك أن قيمتنا الحقيقية تكمن في صفاء قلوبنا، وصدق أعمالنا، لا في ما تراه الأعين أو تحكم به الألسنة. لنحتفي بذواتنا، لأنها الحاضنة الحقيقية لنور الحياة وعزيمتها.

وفي لحظةٍ خالدة من تاريخ الإسلام، تجلّت عظمة الإنسان الحقيقية. فعلى الرغم من أن الكعبة الشريفة تحظى بمكانة عظيمة وحرمة بالغة عند الله، فقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن حرمة المؤمن، ودمه وماله، **أعظم عند الله من حرمة الكعبة نفسها**. وفي هذا المعنى العظيم، لا يُنسى **بلال بن رباح**؛ ذلك الصحابي الجليل الذي تجاوز بقلبه المؤمن كل قيود العرق واللون والنسب. لم تكن مكانته تُقاس بظاهره، بل بقوة إيمانه وصدق عبادته ونقاء روحه. ومن فوق الكعبة المشرفة، وفي يوم فتح مكة العظيم، وفي وسط جمعٍ يضم كبار الصحابة وسادة العرب، صدح بلال بصوته المؤثر، الذي كان صدىً للإيمان الراسخ والصبر الجميل، رسالةً لكل العالم أن العظمة الحقيقية تنبع من القلب لا من الجسد.

وقد قال صلّ الله عليه وسلم "رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره" صحيح مسلم

و"أشعث" من الشعث وهو من صفات الشعر، وشعره أشعث يعني ليس له ما يدهن به الشعر، ولا ما يرجله، وليس يهتم بمظهره.

"أغبر": يعني أغبر اللون، أغبر الثياب، وذلك لشدة فقره.

"مدفوع بالأبواب": يعني ليس له جاه، إذا جاء إلى الناس يستأذن لا يأذنون له، بل يدفعونه بالباب؛ لأنه ليس له قيمة عند الناس لكن له قيمة عند رب العالمين.

"لو أقسم على الله لأبره" لو قال: والله لا يكون كذا لم يكن، والله ليكونن كذا لكان، لو أقسم على الله لأبره، لكرمه عند الله عز وجل ومنزلته، لو أقسم على الله لأبره.

و الميزان في ذلك تقوى الله عز وجل ، كما قال الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، فمن كان أتقى لله فهو أكرم عند الله، ييسر الله له الأمر، يجيب دعاءه، ويكشف ضره، ويبر قسمه. وهذا الذي أقسم على الله لن يقسم بظلم لأحد، ولن يجترئ على الله في ملكه، ولكنه يقسم على الله فيما يرضي الله ثقة بالله عز وجل ، أو في أمور مباحة ثقة بالله عز وجل.

هكذا علمنا النبي أن الإنسان لا يُرفع إلا بتقواه، وأن العظمة ليست حكراً لأحد، بل لكل مؤمن صادق، مهما كان أصله أو مظهره.

الحزن والإيمان

لا بأس أن ينطفئ الإنسان أحيانًا تحت غبار الحياة المتقلب.

تدفعه الأقدار يمينًا ويساراً، يكابد فيها مشقة الأيام، ويتقلّب في عناء لا ينتهي.

لا عيب في أن تمرّ عليه لحظات يثقل فيها النَفس، ويضيق فيها الصدر، فليس ذلك يأسًا ولا قنوطًا، بل هو شيء من التنفيس الفطري عن معاناة كامنة في القلب.

حين تغدو الدموع ملاذًا يهدّئ الروح، وحين تشتد الأحزان دون مفر، نتذكّر أن الدنيا سجن المؤمن، لم تصفُ يومًا لأحد، وهي دائمة التقلّب لا يؤمَن مكرها.

وكثيرًا ما يختلط على البعض الأمر، فيظنون أن الحزن دليل ضعف الإيمان أو اعتراض على القضاء والقدر، وهذه من المعتقدات الخاطئة.

إذ لا ضير أن يشعر الإنسان بثقل في روحه، أو انكسار في قلبه، فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام قد ابيضّت عيناه من الحزن، ألمِا واشتياقًا لابنه، ومع ذلك قال: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله".

وهذا أيوب عليه السلام نادى ربه: "رب إني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين"، فاستجاب له ربه ورفع عنه البلاء.

وسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم مرّ بعام الحزن لفقد عمه (أبو طالب) الذي كان يدفع عنه أذي قريش ثم زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت تسانده دوماً وكان قلبه مكلومًا.

لكنه لم ينسَ في حزنه الاعتصام بربه ، فكان الفرج من الله تعالى بأن يُكرمه بمكانةٍ لم يبلغها أحد قبله، بأن يسرّي عنه في حزنه في رحلة المعجزة «الإسراء والمعراج».

الفكرة هنا ليست في إنكار الحزن، بل في ألا يُسيطر علينا، وألا يتمكّن منا، وألا ينحرف بنا عن طريق الصبر والرضا.

و من ضَعُف إيمانه وخبت في قلبه أنوار اليقين، فإن الحزن إذا تسلل إليه استقر في أعماقه، وتمكّن من روحه حتى يعصف بها. يغدو الحزن ثقيلًا كالصخر، يُنهك الجسد، ويُربك الفكر، ويترك النفس نهبًا للاضطراب والقلق.

يتسلط عليه الشيطان، ويملأ دربه بالوساوس والظنون، فلا يجد في قلبه سَكَنًا، ولا في روحه سُلوى، لأن صدره خلا من طمأنينة الذكر، وعقله من نور التوكل. فيُصبح هشًّا متهالكًا، كأنما انطفأت فيه الحياة.

أما المؤمن، فحزنه رقيق مهذب، يغمُر قلبه ذكر الله، ويطلب العون والعوض منه، يدعو بعزم لا يلين، وإن طال البلاء سرعان ما يستعيد قواه، ويواصل طريقه بثبات وعزيمة.

يحزن، لكنه ينهض.

يتألم، لكنه يدعو: اللهم عوّضني خيرًا، وأمدّني بقوة من عندك.

يظلّ قلبه عامرًا بالأمل.

يدرك قول النبي صل الله عليه وسلم: ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَن وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إِلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه .متفقٌ عَلَيهِ.

وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يكثر الاستعاذة من الحزن، فكان من دعائه:

"اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العَجز والكسل، وأعوذ بك من غَلَبَة الدَّين وقهر الرجال".

وإذا أصابه الكرب يقول:

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، لَا إِلَهُ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ.

بهذا الإيمان، يشتد عود الإنسان، ويقاوم حزنه، ويخطو بثبات في دروب الحياة، لأنه يؤمن أن في نهاية الصبر جزاءً عظيمًا، وأن ما عند الله خيرٌ وأبقى.

الإخلاص.. ميزان القبول

أفزعني حديثٌ شريفٌ قرأته... حديث يكشف لنا أن أخطر ما قد يواجه المرء يوم القيامة، أن يحمل بين يديه أعمالًا تبدو عظيمة في ظاهرها، لكنها خالية من النية الخالصة لله، فيُحبطها الله أمامه، ويكون أول الداخلين إلى النار!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: هو جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار."

"ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: هو عالم، وقرأت ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار."

"ورجلٌ وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتيَ به فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار."

رواه مسلم.

حديث يهزّ القلوب... إذ يخبرنا أن الأجساد قد تُسحب على وجوهها، لا لذنب ظاهر، بل لأن القلوب لم تخلص في نواياها.

ذلك يؤكد أن الله لا ينظر إلى كثرة العمل، بل إلى صدق النية. كل عمل، مهما بدا عظيمًا، إن لم يُرد به وجه الله وحده، كان هباءً منثورًا.

وفي زحامِ هذه الحياةِ، ومع كلِّ خطوةٍ نخطوها، تظهرُ لنا حقيقةٌ لو استوعبناها جيداً، ستحوّلُ كلَّ تعبٍ إلى سعيٍ فيه بركةٌ، وكلَّ صعوبةٍ إلى سهولةٍ. إنها الحقيقةُ التي تقولُ لنا: نحنُ نُعاملُ اللهَ، لا البشرَ.

قد تشعرُ نفوسُنا أحياناً برغبةٍ في كلمةِ شكرٍ، أو ثناءٍ يُخففُ من عناءِ ما قدمناهُ. لكنَّ المبدأَ الأسمى يُخبرنا بوضوحٍ أن قلوبَنا متّصلةٌ بالسماءِ، وأن أيدينا التي تُعطي الخيرَ، تُعطيهِ لوجهِ اللهِ

وحدهُ. فلا يهمُّ بعد ذلك إن كانَ الشخصُ الذي تلقّى العطاءَ يستحقُّ الشكرَ أو كانَ ناكراً للجميلِ؛ فالمقصودُ هو الخالقُ العظيمُ، والجزاءُ سيأتي منهُ، لا من أيّ أحدٍ سواه.

هذا ليسَ دعوةً للسذاجةِ، أو لكي يستغلّنا أحدٌ؛ بل هو دعوةٌ لكي نُقدمَ ما نستطيعُ، دونَ أن يلحقَ بنا ضررٌ، بقلبٍ يرى ما وراءَ الأيادي التي نُعطيها. إنها دعوةٌ لكي تكونَ كلُّ نيّاتنا خالصةً للهِ.

لأنَّ الإخلاصَ هو الميزانُ الحقيقيّ لقبولِ أيّ عملٍ نعملهُ، وهو مفتاحُ القلوبِ، وسرُّ البركةِ والتوفيقِ في كلِّ أمورِنا. لا تكفي كثرةُ العملِ إذا شابها الرغبةُ في إظهارِها للناسِ أو انتظارُ المديحِ؛ فالإخلاصُ وحدهُ يرفعُ العملَ القليلَ ليجعلهُ عظيماً عندَ اللهِ، ويُحوّلُ المجهودَ الصغيرَ إلى حسناتٍ كثيرةٍ في ميزانِنا.

تخيّل نفسَك في وسطِ عملٍ شاقٍّ ومُتعبٍ، حيثُ الإرهاقُ يتسلّلُ إلى كلِّ جزءٍ منك، والتذمّرُ يهمسُ في أذنك. لو ظلتْ نظرتُك مقتصرةً على صعوبةِ العملِ فقط، لظلَّ قلبُك مُثقلاً بالضيقِ. لكن ما إن تضع نيةً صادقةً أمامك: "أنا أعملُ هنا لأُخففَ عن إنسانٍ، أو لأقضيَ له حاجةً، كلُّ ذلكَ لأُرضيَ اللّهَ وحدَهُ،" حينها يتغيّرُ الحالُ كلُّهُ. يتحوّلُ التذمّرُ إلى سعيٍ مُثمرٍ، والتعبُ إلى رضا عميقٍ، لأنَّ عينَك تجاوزتِ المادةَ لترى الروحَ، والنيةَ أصبحتْ مُخلصةً لميزانِ اللهِ لا لموازينِ البشرِ.

كلُّ فعلٍ بسيطٍ نقومُ بهِ، كلُّ كلمةٍ نقولها، كلُّ ابتسامةٍ نُهديها، لو أننا جدّدنا نيّاتنا، وجعلناها ثابتةً للهِ وحدهُ في كلِّ شيءٍ نعملهُ، فإنَّ نظرتنا للحياةِ كلها ستتغيّرُ. ستصبحُ كلُّ لحظةٍ عبادةً، وكلُّ مجهودٍ قربةً للهِ، وكلُّ عطاءٍ ذخيرةً لنا في طريقٍ لا نهايةَ لهُ، طريقٍ يمتدُّ بين القلبِ والسماءِ، حيثُ الإخلاصُ وحدهُ هو الذي يُحددُ قيمةَ كلِّ شيءٍ.

لذا فالمؤمن لا ينتظر ثناءً من الناس، بل يجعل كل عملٍ له لله، وإن كان يسيرًا.

يحرص على إخفاء صدقاته، ويخشى من لحظة يُخالط فيها الرياء قلبه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ...) فذكر الحديث ، وفيه : (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). متفق عليه

هكذا يكون الإخلاص: عملٌ خفي، لا يعلم به إلا رب السماء.

فكلما كان العمل أقرب إلى السرّ، كان أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء.

فليكن بينك وبين الله عملٌ لا يعلمه سواك...

وتذكّر دائمًا: أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وابتُغي به وجهه.

النفس والهوي

يظلّ الإنسان طوال حياته في صراعٍ خفيّ، مع شبحٍ يسكنه... نفسٌ جامحة، متمرّدة، إن لم يُخضعها ويكبح جماحها، قادته إلى التهلكة.

ذلك الشبح هو الهوى...

هو ما يجعل الإنسان ينجرف وراء ما تشتهيه نفسه، دون ميزانٍ من عقل أو وحي، لا يسأل: أهذا حلالٌ أم حرام؟

ينطلق كما تنطلق البهيمة إلى مرعاها، لا هدى ولا قياد، حتى إذا استحكم به الهوى، غطّى قلبه، وعَمِيَ بصره.

انظر إلى حال من اتبعوا هواهم في كثير من المجتمعات...

يرتدّون عن الفطرة، ويصنعون لأنفسهم "حريةً" مزعومة، يتزوجون بلا زواج، ويأكلون ما حرّم الله، ويلبسون ما يكشف لا ما يستر، يشربون ما يُسكر العقول ويقتل الأرواح، بل وتمادى بعضهم حتى أنكر إنسانيته، واختار أن يكون شيئًا آخر...

كأنما عادوا لحياةٍ بهيمية، تُزيَّن باسم "التحرر"، وهي في حقيقتها انحدارٌ عن الكرامة، بعدٌ عن النور.

وقد حذّرنا القرآن من عبادة الهوى، فقال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة الجاثية (٢٣)

فمن سلّم زمام نفسه لهواه، فقد جعل منه إلهاً يُطاع، لا يُسائل، ولا يُردّ له أمر.

يريد من الإنسان أن يفعل ما يشاء، وقتما يشاء، بلا قيدٍ أو حد، وكأنّ الحرية الحقيقية في التفلّت لا في الانضباط.

لكن الحقيقة أن الإنسان إذا عاش بلا حدود، فقد انسحب منه معنى الإنسان... وصار جسدًا يمشي، بلا روح، ولا عقل.

وقد يصل الحال بالبشر أن يعبدوا من سواهم؛ بشرًا مثلهم، أو حجارةً صنعوها بأيديهم، أو حتى بهائم!

ولو شاء الله لعباده الكرامة، أبَوا إلا أن يُذلّوا أنفسهم باتباع ما يُذلّها.

قال تعالى:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ۝ فإن الجنة هي المأوى﴾ سورة النازعات، الآيتان ٤٠_٤١

فالنصر الحقيقي يبدأ من الداخل، من قلبٍ يخاف مقام الله، ويعقل أن طريق النجاة يبدأ بكبح جماح النفس، لا بتلبية رغباتها.

وليست بداية المعصية فعلها، بل الاقتراب منها.

فالنظرة تولّد فكرة، والفكرة تُغري، ثم تتحوّل إلى عادة، ثم يصبح القلب مألوفًا بها، حتى يظن أنها لا تُفارق.

فقطع الشئ من بدايته يكون أسهل تأثيرا علي الإنسان وأكثر آمانا له ، وذلك لأن الله تعالى، بصفته خالق الإنسان وعالماً بنقاط ضعفه، يرشده إلى سُبل النجاة قبل الوقوع في المهالك.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

"أصعب الحرام أوّله، ثم يسهل، ثم يُستساغ، ثم يُؤلَف، ثم يحلو، ثم يُطبَع في القلب، ثم يبحث القلب عن حرامٍ آخر."

فلا تعجب إن سرتَ في طريق الحرام، أن تجد نفسك تغرق فيه

الباب لا يُفتح إلا بعد أن تُمدّ اليد إليه

فلا ينبغي للانسان أن يفتح باب الحرام ويتعجب من سلوكه اياه ..

وورد عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : "ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا ، وعلى جنْبَتَي الصراطِ سورانِ ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةُ ، وعلَى الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ : يا أيُّها الناسُ ! ادخلوا الصراطَ

جميعًا ولَا تَتَعَوَّجوا ، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ ، فإذا أرادَ الإِنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال : وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ ، فإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، فالصراطُ الإسلامُ ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ محارِمُ اللهِ تعالى ، وذلِكَ الدَّاعِي على رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ" حديث صحيح

لذا وجب علي الإنسان أن يقاوم نفسه وهواه ، أن يستدرك خطأه ويتركه فور ادراكه

خلاصة الرحلة: نحو الراحة الحقيقية

لقد خضنا في هذا الكتاب رحلة تأملية عميقة، بدأناها من تساؤلات الوجود وهموم الدنيا، ومررنا بحقائق الرزق، وعظمة قيمة الإنسان في عين خالقه، وقوة الدعاء التي لا تحدها مستحيلات، وتوقفنا عند رسائل خفية توقظ القلوب، وتأملنا في خطورة الكلمة، وصلابة النفس الحقيقية، وكيف يمكن للحزن أن يكون جسرًا للتقرب، وصولًا إلى جوهر الإخلاص الذي هو ميزان القبول، وانتهاءً بصراعنا الأبدي مع النفس والهوى.

في كل محطة من هذه الرحلة، يتجلى لنا بوضوح أن السعادة والراحة التي نبحث عنها ليست في جمع حطام الدنيا، بل في وصل الروح بخالقها. ليست في زوال الألم، بل في الرضا

بالقدر واليقين بأن كل ما يأتي من الله خير. إن الحياة الدنيا ما هي إلا محطات متتالية في "بين القلب والسماء " غايته ليست الوصول إلى راحة زائفة هنا، بل التحضير للراحة الأبدية في الآخرة.

تذكر دائمًا أن قيمتك لا تقاس بما تملكه أو بما يراه الناس فيك، بل بما يحمله قلبك من إيمان وصفاء. وأن كل كلمة تخرج منك هي بذرة قد تكون طيبة أو خبيثة. وأن أحزان الدنيا زائلة، لكن الإيمان يجعلها وسيلة لتكفير الذنوب ورفع الدرجات. وأن أصدق الأعمال هي ما كان لله خالصًا.

دع هذه الكلمات تكون لك نورًا وهداية في دروب الحياة، تذكرك دائمًا بأن تعيش لله، فتكون ملكًا في الدنيا، وتنال الراحة الأبدية في الآخرة.